

صَفَحَاتٌ وَفَحَاتٌ

من سيرة ذو النون المصري وحياته الروحية

بمكتبة
الدكتور: محمد مصطفى علي

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

أجمع الذين ترجموا لذى النون على أن اسمه هو أبو الفيض ثوبان (بفتح الثاء المثلثة ، وسكون الواو ، وفتح الباء الموحدة ، وبعد الألف نون) ابن إبراهيم ، وقيل الفيض بن إبراهيم ، المعروف بذي النون المصري . وأكبر الظن أن تكون تسمية بذي النون راجعة إلى كرامة من كراماته التي تروى عنه ، وذلك أنه قال إن امرأة جاءت به وقالت إن ابنها أخذه التمساح ؛ فلما رأى حرقتها على ولدها أتى النيل وقال : اللهم أظهر التمساح ؛ فخرج إليه التمساح ، فشق عن جوفه وأخرج ابنها حياً صحيحاً . وإذا كان النون هو الحوت العظيم ، وكان يونس النبي عليه السلام قد سمي بذي النون لقصته المعروفة مع الحوت ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ، وكان لثوبان بن إبراهيم الصوفي المصري قصة مع التمساح كقصة يونس مع الحوت ، إذا كان ذلك كذلك فقد تبين إذن لم سمي الصوفي المصري بذي النون . ولعل كل ما هناك من فرق بين ثوبان بن إبراهيم المصري وبين يونس النبي في هذه التسمية ، هو أن يونس النبي قد سمي بذي النون لأن النون الذي هو الحوت كان قد التقمه ، على حين أن ثوبان بن إبراهيم المصري قد سمي بذي النون لأن له كرامة مع التمساح الذي أشرنا إليه في القصة المروية آنفاً .

أما متى وأين ولد ذو النون المصري ، فلا يكاد يذكر أحد من المؤرخين

والمترجمين الذين وقفنا على كتبهم شيئاً عن التاريخ الذى كان فيه مولد ذلك الصوفى العظيم . وإنهم ليختلفون أيضاً حول الموطن الذى كان فيه مولده ، وترد إليه نشأته الأولى : فسواد أصحاب التراجم والطبقات متفقون على أن والدى ذى النون المصرى كان أحدهما أو كلاهما من أصل نوبى ؛ ولكن بعضهم يرى أن مولد ذى النون كان بإخميم من صعيد مصر ، وبعضهم الآخر يذهب إلى أنه من أصل نوبى ثم نزل بإخميم فأقام بها . وسواء أكان مولده بإخميم أم ببلاد النوبة ، فإنه كان على كل حال مصرى المولد والنشأة ، والعناصر التى تتألف منها حياته وثقافته وولايته ، والأحداث التى وقعت له ، والأقوال التى أثرت عنه ، كل أولئك وغيره مما سنفصله بعد سيظهرنا من غير شك على أن الطابع الذى غلب عليه كان مصرياً ، وعلى أنه قد استمد تلك العناصر من صميم الحياة المصرية ، وأنه وإن كان واحداً من أئمة صوفية المسلمين الذين ظهروا فى تاريخ التصوف الإسلامى ، فإنه كان أولاً وقبل كل شىء إماماً لمن ظهر من الصوفية المسلمين فى تاريخ التصوف المصرى .

والمؤرخون والمترجمون الذين ترجموا لذى النون ، وأغفلوا ذكر تاريخ مولده واختلفوا حول موطنه الذى كان فيه مولده ، متفقون على التاريخ الذى كانت فيه وفاته : فكلهم يجمع على أن وفاة ذى النون كانت فى ذى القعدة سنة ٢٤٥ هـ واتفق معهم فى ذلك ابن خلدكان ، ولكنه زاد على ذلك ما قيل من أن هذه الوفاة كانت سنة ٢٤٦ هـ ، أو سنة ٢٤٨ هـ : فإذا أخذنا سنة ٢٤٥ هـ على أنها هى أضبط تاريخ لوفاة ذى النون ، وذلك بحكم اتفاق السواد الأعظم من المؤرخين والمترجمين عليها ، وإذا عرفنا أن السيوطى فى ترجمته لحياة ذى النون قد ذكر أن عمره عند وفاته كان قد قارب التسعين ، استطعنا أن نستخلص تاريخ مولده بحيث يكون ذلك حوالى سنة ١٥٥ هـ .

وذو النون الذى يرجع أصله إلى بلاد النوبة ، ويقع مولده فى بلاد النوبة أو فى إخميم ، لم يقض حياته كلها فى هذه أو فى تلك ، وإنما ارتحل عن إخميم إلى مصر ، وقضى شطراً كبيراً من حياته متنقلاً بين البلدان ، سائحاً فى الجبال والوديان : فهو قد رحل عن إخميم إلى مصر ، وله فى ذلك الرحيل قصة تروى على أن ما وقع له فيها كان سبباً حملاً على هذا الرحيل ، ولكنها تظهرنا إلى جانب ذلك على ناحية

من نواحي الحياة الروحية لذى النون الصوفى ، وما ينبغي أن تقوم عليه هذه الحياة الروحية من شكر على السراء وصبر على البأساء : وذلك أن ذا النون سمع ذات يوم من أيام إقامته بإخميم صوت لهو ودفاف ، فقال : ما هذا ؟ قيل : عرس ، ثم سمع بجانبه بكاء وصياحاً ، فقال : ما هذا ؟ قيل : فلان مات ؛ قال : أعطى هؤلاء فما شكروا ، (وابتلى) هؤلاء فما صبروا ، لله على إن بت بهذا البلد ، نخرج فوراً إلى مصر فقطنها . وهو قد رحل عن مصر إلى غيرها من البلدان ، وله في أماكن عدة منها ومن غيرها من البلدان أسفار وسياحات ، وتروى عنه في هذه الأسفار والسياحات طائفة من الخوارق والكرامات سنعرض لها في موضعها من الحديث عن حياته الروحية ، وحسبنا هنا أن نذكر الأماكن التي تنقل بينها في مصر ، والتي ارتحل إليها وساح فيها من غير مصر : فجبل المقطم وشاطئ النيل وبرابى الصعيد والفسطاط وبيت المقدس وبغداد ومكة وبوادي الحجاز والشام وتيه بنى إسرائيل وجبل لبنان وجبال أنطاكية وجبل السكام ووادي كنعان وجبل تيسان ، كل أولئك أماكن شهدها ذو النون وشهدت هي من أحواله وبجلت من أقواله الشيء الكثير .

وقد ظل ذو النون على هذه الحال من الإقامة والرحلة ، يتلقى العلم حيناً ، ويلقى الحكمة حيناً آخر ، ويعظ الناس ويرشدهم ويبصرهم بالحقائق ويوقفهم على الدقائق على الوجه الذى سنبينه بعد ، حتى كانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٢٤٥ هـ ٨٥٦ م ، وقد قارب وقتئذ التسعين من عمره ، وذلك هو التاريخ الذى اتفق معظم المؤرخين والمترجمين على أن وفاة الصوفى المصرى كانت فيه ، إذا استثنينا ابن خلكان فإنه متفق معهم عليه من ناحية ، ويزيد من ناحية أخرى ما قيل من أن وفاة ذى النون كانت فى سنة ٢٤٦ هـ ، وما قيل أيضاً من أنها كانت فى سنة ٢٤٨ هـ .

ويكتفى بعض المترجمين بأن يذكر أن وفاة ذى النون كانت بمصر دون أن يعين أى بلد من بلدان مصر كانت فيها الوفاة ، وذلك على نحو ما فعل ابن خلكان ، على حين يذكر البعض الآخر أن تلك الوفاة كانت بالجيزة على نحو ما فعل الشعرانى إذ يقول : « لما توفى ذو النون بالجيزة حمل فى قارب مخافة أى ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته . . . » ويرى الهجويرى أنه فى ليلة وفاة ذى النون رأى

سبعون رجلاً الرسول في النوم وهو يقول : « جئت لألقى ذا النون خليل الله » ،
 وأنه بعد أن فاضت روحه وجد مكتوباً على جبينه : « هذا حبيب الله الذي مات
 في حب الله وقتله الله » . ومن الكرامات التي يرددها كتاب الطبقات لذي النون
 ولكثير غيره من الصوفية ما يذكرونه من أنه لما مات ذو النون أظلت الطير
 الخضضر جنازته ترفرف عليه إلى أن وصل إلى قبره ، ولما دفن غابت ، وعندما
 رأى أهل مصر ذلك ندموا على ما فرط منهم في حق ذلك الولي ، واستغفروا مما
 أنكروه عليه من ولايته ، وما ألحقوه به من الأذى في حياته ، وأجلوه بعد ذلك
 واحترموا قبره .

أما أين دفن ذو النون المصري ، فقد ذكر ابن خلكان أنه دفن بالقرافة
 الصغرى ، وأن على قبره مشهداً مبنياً ، وأن في المشهد أيضاً قبور جماعة من
 الصالحين . وذكر المناوي أن ذا النون قد دفن بالقرافة ، وأن قبره بها ظاهر
 مقصود بالزيارة وعليه أنس ومهابة ، وأن هذا القبر بالقرب من قبر عقبة بن عامر
 الجهني الصحابي ، وأنه يقال إن ذا النون وعقبة وعمرو بن العاص في قبر واحد .

على أن ذا النون المصري كان صوفياً من أصحاب الرياضيات والمجاهدات ،
 وولياً من أرباب الأذواق والمشاهدات ، وقد كان له بحكم هذا كله حياة روحية
 تأتلف فيها العناصر العلية والعملية التي يتألف منها مذهب الصوفي . ولهذا كان
 لا بد لنا من أن نعرض لتلك العناصر العلية والعملية حتى نتيين من خلالها أية
 حياة روحية كان يحياها الرجل فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه
 وبين أشباهه من بني جنسه ، وبحيث نقف على صورة واضحة لما تلقاه ذلك الصوفي
 من علم وما أخذ به نفسه من عمل وما لقيه في حياته وفي مذهبه وعقيدته من نعي
 الناعين وإرجاف المرجفين ، وما انتهى إليه أمره من انجلاء غمرة الشك عنه فإذا
 هو يتجلى على حقيقته في حياته وبعد مماته ولياً من أولياء الله ، ومحجاً أفنى حياته
 في حب الله ، وعارفاً سلك سبيل الحق المؤدية إلى معرفة الله ، حتى أن الذين
 سعوا به وشنعوا عليه لدى الخليفة المتوكل أولاً ، عادوا فعرقوا له قدره ، وأكبروا
 شأنه ، وأقروا بولايته ، واحترموا قبره بعد وفاته .

ولعل فيما كتبه أصحاب التراجم والطبقات عن ذى النون معرفين به ومكبرين من شأنه ما يعطينا صورة عامة لما كانت تشتمل عليه الحياة الروحية لذلك الصوفي المصرى العظيم : فقد استهل أبو نعيم الأصبهاني ترجمته له بقوله : « العلم المضى ، والحكم المرضى ، الناطق بالحقائق ، الفائق للطرائق ، له العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، نظر فعبر ، وذكر فازدجر ، أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى رحمه الله تعالى » ؛ وذكر المناوى بعض ما ذكره الأصبهاني من الخصائص الروحية لحياة ذى النون ، وزاد عليه أشياء لم يذكرها الأصبهاني ، ولها قيمتها فى الإبانة عن بعض الخصائص الروحية الأخرى ، فضلاً عما تبينه من منزلة ذى النون فى تاريخ التصوف المصرى وفلسفته الروحية ، وفى هذا يقول المناوى : « ... ذو العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، والصفات الكاملة ، والنفس العاملة العاملة ، والهمم العلية ، والطريقة المرضية ، والمحاسن الجزيلة المتبعة ، والأفعال والأقوال التى لا تخشى منها تبعة ، زهت به مصر وديارها ، وأشرق بنوره ليلاً ونهارها ، ؛ وأبان التشيرى عن مكانة ذى النون العلية والتصوفية فى عصره فقال عنه : « فائق هذا الشأن ، وأرحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً » .

فإذا فصلنا ما أجملته ، وأشارت إليه أقوال المتقدمين هذه ، قلنا إن ذا النون المصرى قد كانت له ثقافتان : إحداهما ثقافة عليية دينية ، والأخرى ثقافة عليية دنيوية ، وإن لهاتين الثقافتين أثرهما فى تكوين حياته الروحية الخالصة .

أما ثقافته العلية الدينية فتبين إذا عرفنا أنه تلقى علوم الشريعة والحقيقة عن بعض الأساتذة حيناً ، وعن طريق الرواية حيناً آخر . على أننا لانعرف من أساتذته إلا إثنين : أحدهما يعرف باسم إسرائيل ، والآخر يعرف باسم شقران العابد . وقد ذكر السراج الطوسى إسرائيل هذا بما يبين أنه كان أستاذاً لذى النون فقال مانصه : « سمعت الوجيهى يقول : سمعت الطيالسى الرازى يقول : دخلت على إسرائيل أستاذ ذى النون رحمه الله وهو جالس ينكت بأصبعه على الأرض ، ويرنم مع نفسه بشيء ، فلما رآنى قال : أتحنن تقول شيئاً ، قلت لا ، قال : أنت ،

بلا قلب . . وقد ذكر جامي إسرائيلي هذا باسم إسرائيلي المغربي أستاذ ذى النون .
أما شقران العابد فقد كان شيخاً لذى النون فى الطريقة .

وقد عاش ذى النون فى عصر حفل بكثرة من ظهر فيه من أئمة الفقه وعلماء
الحديث ومشايخ الصوفية : فاتصل بأولئك وهؤلاء ، وتأثر بهم ، وأخذ عنهم ،
وكان لهذا كله ثمراته الياصرة ونفحاته الرائعة فى حياته الروحية : فهو قد اتصل بالإمام
أحمد بن حنبل واجتمع به ، كما اجتمع به غيره من مشايخ الصوفية الذين كان منهم
بشر الحافى والسرى السقطى ومعروف الكرخى : وهو — كما يقول عنه الذهبى
فى تاريخه الكبير — قد روى عن مالك والليث وابن لهيعة والفضيل ابن عياض
وابن عيينة ومسلم الخواص وغيرهم . وروى عنه الحسن بن مصعب النخعى وأحمد
ابن صبح الفيومى والطائى وغيرهم : وهو يعد فوق هذا كله فى جملة من روى الموطأ
عن الإمام مالك : فكل أولئك كان خليقاً أن يجعل من ذى النون عالماً عاملاً
سواء من الناحيتين الشرعية والتصوفية ، أو مفتياً فى العلوم على حد قول مسلمة بن
قاسم . على أن الأحاديث التى رواها ذى النون لم تكن دائماً موضع ثقة الذين
أشاروا إليه أو تحدثوا عنه : فمن ذلك ما قاله الجوزقانى من أن ذا النون كان زاهداً
عاملاً ضعيف الحديث ، وما قاله الدارقطنى من أنه روى عن مالك أحاديث
فيها نظر .

على أن ذا النون ، وإن كان عالماً بالحديث وراوياً له ، فهو لم يشتغل به إلى
الحد الذى جعل منه شغله الشاغل ، بل لم يلبث أن انصرف عنه إلى الاشتغال
بنفسه . وليس أدل على ذلك من أنه سئل لم لا يشتغل بالحديث ، فأجاب بقوله :
« للحديث رجال ، وشغلى بنفسي استغرق وقتي » .

ولذى النون رأى فى الحديث وأهله ، وفى الفقه وأربابه : فهو يرى أن الحديث
من أركان الدين ، وأنه لولا نقص دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل
الناس فى زمانهم : فهم عنده قد بذلوا عليهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم ،
فحبوهم واستكبروا عليهم ، وافتتنوا بالدنيا لما رأوا حرص أهل العلم والمتفقهين
عليها ، فخانوا الله ورسوله ، وصار إثم كل من تبعهم فى غنمهم ، جعلوا العلم نخاً
للدنيا ، وسلاحاً يكسبون بها ، بعد أن كان سراجاً للدين يستضاء به . وأعجب ما كان

يعجب له ذو النون هو من هؤلاء العلماء إذ يخضعون للمخلوقين دون الخالق ، وهم يدعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق . وأكبر الظن أن يكون ما رآه ذو النون في أهل الحديث والفقه وما نسبته إليهم هنا سبباً من الأسباب التي أحنقت هذا الفريق من العلماء عليه فجعلوا يشنعون عليه ويسعون به لدى الخليفة من ناحية ، ولدى الرأي العام في مصر من ناحية أخرى ، فإذا هو يمتحن ويؤذى ، ويتم في عقيدته ، ويقول عنه جهلة المتفهمة إنه زنديق .

وكما كان العصر الذي عاش فيه ذو النون حافلاً بأرباب العلم من الفقهاء والمحدثين الذين أخذ عنهم ، فقد كان كذلك عصرًا مزدهراً من الناحية الروحية مشرقاً بكثير من الشخصيات الصوفية التي طبعت روح العصر بطابعها ، والتي كان من بين أصحابها أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وأبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ وقد لقي ذا النون بمكة سنة خروجه إلى الحج ، وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة ٢٨٨ هـ وقد صحب ذا النون ، وإسحق بن إبراهيم السرخسي ، وقد قص عن ذي النون قصة روى فيها أنه سمع ذا النون وفي يده الغل وفي رجله القيد ، وهو يساق إلى المطبق ، والناس يبيكون من حوله ، وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه ، وكل فعالة عذب حسن طيب ، ثم أنشد من الخفيف :

لك من قلبي المكان المصون كل لوم على فيك يهون

لك عزم بأن أكون قتيلاً فيك والصبر عنك ما لا يكون

وأبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي المتوفى سنة ٣٠٤ هـ وقد صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشي ، ورافق أبا سعيد الخراز : فكل أولئك وكثير غيرهم كانوا من كبار الصوفية الذين عاصروا ذا النون ، واتصلوا به ألواناً مختلفة من الاتصال ، وكان لهم في حياته وفي مذهبه آثار لها قيمتها العلمية والعملية ، كما كان له في أنفسهم منزلة كبرى ومكانة عظيمة من الناحية الروحية . وليس أدل على هذه المكانة وتلك المنزلة مما يروى عن سهل بن عبد الله التستري من أنه أقام

سنين لا يسند ظهره للمجرب ولا يتكلم ، فلما كان ذات يوم بكى واستند وتكلم ،
وبالغ في إبراز المعاني العجيبة والإشارات الغريبة ، فلما سئل في ذلك ، أجاب
بقوله : كان ذو النون بمصر حياً ، فما تكلمت ولا استندت لإجلاله ، والآن
قد مات ، فقيل لى : تكلم فقد أذنت .

فإذا تركنا العناصر العلمية الشرعية والعلمية التصوفية التي يمكن أن يكون قد
أفادها ذو النون ممن عاصره من أصحاب الشريعة وأرباب الحقيقة ، ووقفنا عند
العناصر العملية التي كان يأخذ هو بها نفسه ، وكانت تعمل هي عملها في نفسه ، وكان
لها أثر في تصفية قلبه من شوائب حسه ، ألقينا حياته الروحية الخاصة حافلة
بما يظهرنا على أنه لم يكن عالماً فحسب ، ولا آخذاً للعلم عن غيره فحسب ، وإنما كان
فوق ذلك عاملاً على أن يحيا حياة روحية قوامها التوبة إلى الله والزهد في الدنيا
والصبر على المحنة والرضا بكل ما تقضى به مشيئة الله والتوكل على الله والتسليم له
والإقبال عليه ، وما إلى ذلك من مقومات الحياة الروحية الحقبة التي ينبغي أن
يحياها الصوفي المتحقق ، والتي سنتبينها معه في موضعها من الحديث عن تصنيفه
للمقامات والأحوال ، وكشفه عن حقيقة المثل الأعلى الذي يجب أن يحققه الصوفي
المتحقق في القول والفعل سواء فيما بينه وبين ربه أو فيما بينه وبين نفسه أو فيما بينه
وبين أشباهه . وحسبنا هنا أن نبين كيف اتجه ذو النون في حياته إلى هذه الوجهة
الروحانية ، وما هو بعض مظاهر تلك الحياة عنده : فقد روى المترجمون وأصحاب
الطبقات على لسان ذي النون نفسه قصة لعلها تظهرنا من خلالها على أنه كان يحيا
أول الأمر حياة إنسانية كذلك التي يحياها الناس جميعاً ، يخضعون فيها لسلطان
نفوسهم ، وتفترق فيها الشهوات والملذات والمنافع المادية العاجلة نفوسهم ، ولكنه
ما لبث أن عرض له عارض وبدا له باد ، فإذا هو يتوب . وقصارى هذه القصة
أن ذا النون سئل عن سبب توبته ، فأجاب بقوله : خرجت من مصر إلى بعض
القرى ، فتمت في الطريق في بعض الصحارى ، ففتحت عيني ، فإذا أنا بقبرة عمياء
سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرجت منها سكرتان ،
إحدهما ذهب ، والأخرى فضة ، وفي إحدهما سسم وفي الأخرى ماء ، فجعلت

تأكل من هذا وتشرب من هذا ، فقلت : حسبي ، قد تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلني . والمتأمل في قوله : « وحسبي قد تبت » ، ولزمت الباب إلى أن قبلني ، يلاحظ أنه قد تاب وأخذ نفسه بالرياضة والمجاهدة والوقوف على باب المحبوب الحقيقي مجتازاً كل العقبات ومتنقلاً بين جميع المقامات حتى ظفر برضا المحبوب الحقيقي عنه وقبوله له . والذي يعنيننا هنا هو أن نلاحظ أن ذا النون ما فتى على هذه الحال من رياضة نفسه ومجاهدتها حيناً ، ومن اتصاله بالناس وإقباله على نفوسهم حيناً آخر ، يبصرهم بما فيهم من عيوب ، ويدعوهم إلى التوبة عما اقترفوا من ذنوب ، سواء أكان ذلك في الحلقات التي كان يقيمها ويتحدث فيها عن علم الباطن وسلوك طريق الله ، أم في أى مكان في أى بلد مما حل به من البلدان .

وليس من شك في أن حياة ذى النون على هذا الوجه قد جعلت منه إنساناً كملت فيه الإنسانية بحيث لم يكن يؤثر بعمله وخيره أحداً من دون أحد ، وإنما المسلمون كلهم لديه سواء ، لا يصدر في سلوكه معهم إلا عن حب عميق لهم ، وعطف وثيق عليهم . وهو في هذا إنما كان — على حد قول الهجویری — متشبهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ على الرغم من إيذاء الكفار له لم يكن يفتر عن دعائه قائلًا : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

